الفصل الثالث

خصائص الثقافة ؟ ؟

الفصل الثالث

خصائص الثقافة

للثقافة خصائص محددة وواضحة ، يمكن إيجازها فيما يلي :

أولاً : التكامل :

وهذه الخاصية معناها أن عناصر الثقافة في أي مجتمع، وفي أي مستوى ، تتكامل فيما بينها ، كما أنها تتوازن حيث نجد أن الأمور المادية في ثقافة أي مجتمع تستند على.. وتتفاعل مع الأمور المعنوية في ذلك المجتمع. وإذا حدث خلل بين الجوانب المادية والمعنوية، كأن يتقدم عنصر على آخر، وهو ما يطلق عليه مصطلح «التخلف الثقافي CULTURAL LAG»، إذا حدث ذلك ، فإن المجتمع يحاول ـ بقدر ما يستطيع ـ تصحيح ذلك الخلل ، وإلا ظهرت فيه المشكلات، وحلت به العلل والأمراض الاجتماعية المختلفة.

ثانيًا : التراكم :

فحيث قلنا في بداية الحديث عن الثقافة أنها تكتسب على مر الأجيال والعصور نتيجة احتكاك البشر بما حولهم من بيئات طبيعية ، وكذا بمن حولهم من بيئات اجتماعية، فإن مئات ، وربما آلاف ، الخبرات التي تتجمع نتيجة هذه الاحتكاكات في عقول هؤلاء البشر ، وفي سلوكياتهم ، تصبح جزءاً من ميراث الجماعة وتنتقل هذه الخبرات الثقافية ـ بجانبيها المادي والمعنوي ـ من جيل إلى آخر، دون توقف أو انقطاع » فهي إذا مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع، وترثها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، ولذا أطلق عليها الأنثروبولوجي الأمريكي « رالف لينتون R. LINTON » مصطلح « التراث الاجتماعي SOCIAL HERITAGE » الذي يرثه أفراد المجتمع عمن سبقهم من أفراد مجتمعهم.[1]

وتقول الخطة الشاملة للثقافة العربية عن هذا الجانب التراكمي « إنها ـ

(١) زكي محمد اسماعيل : مرجع سابق ، ص ١٤٣.

أي الثقافة ـ إنجاز تراكمي متنام مستمر تاريخي، فهي بقدر ما تضيفه من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتحبب من قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحًا ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساسية، كما أنه بُعد أساسي من أبعادها.[٢]

ثالثا : الإنسانية :

ومعناها أن الثقافة تختص بالعنصر البشري، دون غيره من مخلوقات الله ، وذلك ببساطة شديدة لأن الإنسان هو الذي له تاريخ يتذكره، ويتعظ بأحداثه، وله خبرات يستفيد منها، ويستعيدها ويعلمها أبناءه، فهي ـ أي الثقافة ـ فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، وهي كذلك وسيلة الإنسان للالتقاء مع الآخرين من خلال عناصرها المختارة ، واللغة خير دليل على ذلك، والتنافس في مجالات العلوم والفنون مجال آخر لذلك الإلتقاء.

إن الإنسان ـ بواسطة عقله ـ استطاع أن يفكر ، وأن يبدع ويبتكر ، وأن يواجه الظروف الطبيعية القاسية التي اعترضت حياته، بل وأن يتغلب عليها ، بعد أن أعمل فكره فيها ، ولذا وجدنا أنماطًا من السلوك تعلمها الإنسان من مواجهته للكوارث الطبيعية، عرفها وخبرها وجربها في مواجهة تللك الكوارث، ثم إنه علمها لأبنائه من بعده فقلت مخاطر تلك الكوارث، ويكفي أن نتجه ببصرنا نحو اليابان لنرى أثر الزلازل فيها اليوم، ونتذكر آثارها المدمرة التي كانت قبل ذلك في حياة الشعب الياباني، وننظر كذلك في أثر العواصف والأعاصير في حياة المجتمع الأمريكي قديما أيام كان الهنود الحمر هم الذين يمتلكون الأرض ويعيشون هناك، واليوم بعد أن امتلكها العنصر الأوروبي الوافد الجديد، أو الغازي القوي الذي امتلك العلم والتكنولوجيا

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، مرجع سابق (المجلد الأول) ص ٤٠.

وطبقها في حياته وعلمها لأجياله كي تتعامل بهما مع الطبيعة ومع غيرها.[*]

رابعًا : التغير والتطور :

فمن خصائص الثقافة أنها تتغير ، في المجتمع الواحد ، بفعل ما يطرأ على ذلك المجتمع من تغيرات، فالشعب المصري على سبيل المثال ـ يعيش على أرض وادي النيل منذ آلاف السنين ، ولكن لا يستطيع إنسان الإدعاء بأن ثقافة قدماء المصريين كانت مثل ثقافة الشعب المصري تحت حكم اليونانيين أو الرومان، وثقافته حين من الله عليه بالإسلام بعد أن فتح المسلمون بلاده بقيادة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه . «إن الإنسان ـ عبر تاريخه الطويل يطور من عاداته وتقاليده وأساليب حياته وإنتاجه» ، كما يقول « قمبر » وصحبه.[٣]

خامسًا : الثقافة صانعة الإنسان :

فعلى الرغم من أن الإنسان ـ كما سبق القول ـ هو صانع الثقافة ، ومبدع عناصرها عبر عصور التاريخ المختلفة ، إلا أنها هي .. تعود فتصنعه وتشكله حسب آخر أنماطها التي وصلت إليها « إن الطفل الصغير إنما يولد في ثقافة ، وهذه الثقافة هي التي تشكل سلوكه ومفاهيمه وكذا اتجاهاته وميوله.. ويتعلم الطفل ـ بالوعي وباللاوعي ـ أنماط السلوك من الأسرة، ومن غيرها من المؤسسات الاجتماعية في المجتمع ، ولا يقبل المجتمع من سلوك الفرد الا ما يتفق مع ثقافته السائدة، والمجتمع ـ أي مجتمع ـ لا يتهاون في ذلك ولا يفرط فيه على الإطلاق.

« إن الإنسان حينما يولد في ثقافة يتأثر بها ، وخلال حياته اليومية

(*) منذ بضع سنوات ضربت الشواطئ الجنوبية الشرقية للولايات المتحدة الأمريكية موجة رهيبة من الأعاصير حطمت عددا كبيرا من القوارب والمراكب في البحر ، كما حطمت عددا كبيرا جدا من المنازل على الشاطئ ، وقد وصلت الخسائر أكثر من بليون دولار ، بينما لم تتعد الخسائر البشرية سبعة أفراد فقط، وكان ذلك بسبب سماع الناس بها ، وتنفيذهم لتوجيهات الجهات المسؤولة التي بثت إليهم في شبكات التليفزيون والراديو، بعد أن تلقى هؤلاء المسؤولون تحذيرات من الأقمار الصناعية الدوارة في الفضاء.

(٣) محمود قمبر وآخران ، مرجع سابق، ص ٣٩.

يتفاعل مع بيئته المحيطة فيؤثر هو في الثقافة ، فبين الإنسان وثقافته علاقة جدلية، تأثير وتأثر، وتتأثر الثقافة حينما يجمع الأفراد على التغير ويقبلونه.[٤]

والأجيال الجديدة من أفراد المجتمع تصنع وتصهر داخل هذه الثقافة الجديدة، بكل ما فيها من تغير قد لا تكون الأجيال السابقة مرت فيه أو خبرته، وهذا معنى قولنا إن الثقافة تصنع الإنسان على الرغم من أنه هو صانعها ومبدعها.

سادسًا : الإنسان صانعها :

حيث هو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية ، بفضل العقل الذي منحه الله إياه، ويبحث في وسائل استثمارها، ويعمل على التكيف مع عناصرها لتحقيق مطالبه، واستجابة لحاجاته. إن ذلك يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وهي ليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، انطلاقًا من علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي، وتدور حول محور المنفعة والاستفادة ، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه.[٥]

ملحوظة مهمة :

إن هذا الجزء ـ بالذات ـ الخاص بصناعة الإنسان للثقافة هو الذي يؤكد على ما ذكرناه قبل ذلك عن ضرورة فصل الدين بمفرده عند الحديث عن عناصر الثقافة من فن ولغة وغيرهما ، لأنه إذا كانت عناصر الثقافة من صنع الإنسان، فالدين ليس كذلك على وجه اليقين، لأنه منزل من فوق سبع سماوات، من عند الله ، سبحانه وتعالى، وهذا هو الفهم الصحيح الذي ينبغي أن نقيد أنفسنا به نحن المسلمين، حتى وإن قال جميع علماء الغرب أو الشرق بغير ذلك.

---

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٠.

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٢.

سابعًا : عنصر الانتقاء :

مما لا شك فيه أن الخبرات التي مرت بالإنسان ، في مجتمعاته المختلفة كانت هائلة وكثيرة ومتنوعة ، ورغم أنه سبق القول إن الثقافة تراكمية إلا أنه مما لا شك فيه أن الإنسان قد قام بعمليات انتقاء كثيرة جداً ، داخل عناصر ثقافته، إذ أنه لو أن كل خبرة مر بها كان قد حافظ عليها وأبقاها في ذاكرته أو في سجلاته لعجز اليوم عن حصرها والوقوف عليها جميعا ، ومن هنا فلابد لنا من التسليم بأن الإنسان قد قام بعمليات انتقائية واسعة وكثيرة لما كان قد تجمع لديه من عناصر ثقافية في الوقت الراهن. وفي ذلك يقول « سرحان » : «يتميز المجتمع الإنساني بقدرته على انتقاء الخبرة من رصيدها المتراكم عبر الأجيال مكونا بها رأس المال الذي يتعامل به الإنسان في انتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة الاجتماعية ». وذلك كما نقل عن « حامد عمار » في كتابه «بعض مفاهيم علم الاجتماع».[٦]

ثامنًا : شمولها لكل المجتمع :

من الخصائص المهمة للثقافة أنها شاملة لكل أفراد المجتمع وطوائفه، بغض النظر عن غنى بعضهم وفقر البعض الآخر، وكذا بغض النظر عن تعلم البعض وجهل البعض الآخر، وكذا بغض النظر عن اشتغال البعض بالأعمال المنتجة للثقافة من آداب وفنون، وبينما البعض الآخر مستفيدون مما ينتجه غيرهم.. إلخ.

إنها إذاً تشمل النخبة من الجماهير الواسعة .. أي المبدعين من أي منبع أو نشاط كانوا، كما تشمل المستفيدين من الثقافة على حد سواء، كما تقول بذلك الخطة الشاملة للثقافة العربية.[٧] إن المجتمع كله ، بهذا المعنى ، إما منتج مفكر مبدع، وإما عامل نشيط منتج، وإما طالب علم مجد مجتهد، وإما طفلٍ نامٍ في طريقه للنضج ، والجميع مستفيدون من جهود بعضهم البعض،

(٦) المرجع السابق ، ص ١٣٣.

(٧) الخطة الشملة للثقافة العربية ، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٣.

والمحصلة النهائية غنى المجتمع بثقافته وتطورها ، بفضل ما يتراكم لدى مؤسساته ومنظماته وهيئاته من عمل كل هؤلاء الأفراد.

تاسعًا : خاصية الاستمرار:

طالما أن الثقافة تتراكم في المجتمع ، نتيجة خبرات أفراده مع عناصر الطبيعة ، أو مع أفراد مجتمعه، أو المجتمعات الأخرى، فمعنى ذلك أنها مستمرة.. من جيل إلى جيل . وعلى الرغم من فناء الأجيال المتعاقبة إلا أن الثقافة تبقى من بعدهم لتتوارثها الأجيال من بعضها ، ولتضيف إليها كل يوم جديدا. وهذا التوارث للثقافة ، بعناصرها المختلفة ، هو الذي يؤدي إلى وجود ما يعرف بمصطلح «التراث الاجتماعي SOCIAL HERITAGE » الذي يرثه أفراد المجتمع، أو بمعنى أصح.. أجيال المجتمع اللاحقة، من الأجيال السابقة، وذلك كما يقول « رالف لينتون R. LINTON » الأنثروبولوجي الأمريكي المعروفي ، وكما نقل عنه « اسماعيل » قوله : إن للثقافة قدرتها الهائلة على الانتقال التاريخي داخل المجتمع الواحد، بل وحتى من مجتمع إلى آخر.[٨]

عاشرًا : الثقافة فكر وعمل :

حينما وجد الإنسان على سطح هذه الأرض كان عليه أن يفكر ، وأن يعمل ، حتى يستطيع البقاء، ومنذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها مشكلة ، كما يعلمنا القرآن الكريم ، وكانت مشكلة دفن الموتى ، حين أرسل الله ، سبحان وتعالى ، غرابًا يعلم الإنسان الدرس الأول فيها﴿ فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ﴾ وقد اعترف الإنسان «قابيل بن آدم » بعجزه وجهله أمام ذلك الطائر ﴿ يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ ، ولكنه تعلم الدرس، بعد أن أعمل فكره فيه بسبب الخبرة السيئة التي مرت به، ومنذ ذلك الوقت وهو يفكر.. ويعمل » إن أي عمل إنساني لا يتم إلا إذا كان ترجمة لأفكار معينة، كما أن

(٨) زكي محمد اسماعيل : مرجع سابق، ص ١٤٤.

العناصر المادية ، على اختلاف أشكالها وطرزها ، لا تخرج عن كونها أفكاراً تجسدت في أعمال .. والدين الإسلامي لا يتمثل في العقيدة وحدها ، وإنما يتجلى في المعاملات والعبادات والشعائر التي يؤديها الإنسان المسلم ، امتثالاً لأوامر الإسلام ونواهيه » .[٩]

حادي عشر : الثقافة نسيج معقد :

تشتمل الثقافة على عدد كبير من السمات والمركبات والنظم والأنساق والأنماط الثقافية ، وذلك لتراكم التراث الثقافي واستمراره عبر عصور طويلة ، وكذلك لاستعارة عديد من السمات والأنماط الثقافية من خارج المجتمع نفسه، ويرجع تعقد وتشابك العناصر الثقافية إلى أمر مهم، هو أن القدر الأكبر من السلوك البشري ليس مجرد تجمع عشوائي من الأنشطة التي تمثل أنساقا ترتبط ببعضها البعض، وإنما يتم هذا الارتباط الوثيق من خلال ارتباط وتنسيق دقيق لهذه العناصر التي تتداخل وتتشابك فيما بينها بحيث لا يفهم نمط منها إلا بارتباطه بالأنماط والعناصر الأخرى.[١٠]

ثاني عشر : القابلية للإنتشار :

كثيراً ما تكون المخترعات والاكتشافات، بطبيعتها المادية والاجتماعية، من إنتاج فرد أو جماعة..في بادئ الأمر، فإذا بقيت وقفا على هذا المستوى الفردي أو الجماعي تلاشت بموت الفرد أو الجماعة التي اكتشفتها ، ولكنها تنتشر عن طريق الأفراد ، داخل المجتمع الواحد، أو عن طريق الجماعات الإنسانية في المجتمعات.

وانتشار هذه المخترعات يتم عادة على أساس احتوائها كعناصر ثقافية جديدة داخل الكيان العام لثقافة المجتمع، فالانتشار هو انتقال عناصر ثقافية داخل الثقافة نفسها ، من جزء إلى أجزاء أخرى، لتشمل كل الثقافة، أو انتقال هذه العناصر الثقافية من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر، ويكون الانتشار

---

(٩) المرجع السابق، ص ١٤٥.

(١٠) المرجع السابق، ص ص ١٤٥-١٤٦.

مباشراً عن طريق احتكاك الأفراد والجماعات ببعضها البعض داخل المجتمع الواحد ، أو عن طريق احتكاك المجتمعات ببعضها البعض.[١١]

هذا، ويكون الانتشار سريعًا وفعالاً حين تبدو أهمية العناصر الثقافية المنقولة، إذ يتوقف قبولها في المجتمع على ما تتميز به من فائدة له، كأن تكون قادرة على حل مشكلة معينة، أو أن تكون قادرة على إشباع حاجة لأفراده، فتزداد درجة انتشارها وتكاملها داخل الإطار الثقافي العام لثقافته، لذلك فإن انتشار العناصر الثقافية المادية كالمخترعات والأدوات والمنتجات الصناعية، يكون أكثر في سرعته من انتشار العناصر الثقافية غير المادية كالمفاهيم والاتجاهات والعادات السلوكية وغيرها مما يتصل بأنماط السلوك في الثقافة.[١٢]

ولعل مثال انتقال المخترعات المادية وانتشارها في دول الخليج العربية يبين ما سبق بوضوح ويفسره، حيث تعج شوارع الخليج وطرقاته بالسيارات من كل شكل ولون ، وحيث تنتشر المحلات الضخمة (السوبر ماركت) التي تمتلئ بكل ما هو منتج وموجود في بلاد العالم الغربي من ماديات، بينما لم تستطع القيم والاتجاهات الغربية أن تخترق مجتمعات الخليج بنفس هذا القدر الذي فعلته العناصر المادية ، وإن كانت هناك ـ للأمانة ـ بوادر مقلقة في هذا الشأن لا تخفى على ذوي الحس السليم والفهم الواعي للأمور.

ثالث عشر : حركية الثقافة :

وقد يكون هذا المصطلح غريبا بعض الشيئ ، ولكننا نقصد به وضع الثقافة من حيث هي ديناميكية متحركة، أو استاتيكية ساكنة. ومعروف أن الجمود التام معناه الموت، ولذلك فحينما نقول : إن ثقافة ما ثقافة جامدة أو ساكنة فلا يعني ذلك أنها ثقافة ميتة لا حراك فيها ، ولكن معناه أنها ثقافة هادئة الحركة ، لا تنزع الى السرعة والحركة النشيطة ، وأن حياة الأفراد فيها شبه ثابتة، وأدوارهم الاجتماعية محفوظة ، أو شبه محفوظة.. التغير فيها

---

(١١) منير المرسي سرحان ، مرجع سابق، ص ص ١٤٧-١٤٨.

(١٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٨-١٤٩.

بسيط جداً ومحدود، وهذه ـ عادة ـ هي ثقافات المجتمعات البدائية، وتقترب منها ثقافة المجتمعات الريفية أو البدوية البعيدة عن المدن، والبعيدة ـ بالتالي ـ عن التأثيرات المتسارعة للأحداث.

وعكس ذلك ، بطبيعة الحال، ثقافة المجتمعات الحية الديناميكية المنفتحة على الثقافات الأخرى بكل تياراتها ، تتأثر بها، وتؤثر فيها ، تأخذ منها وتعطيها، وهي بذلك تساير روح العصر وتقدمه العلمي والتكنولوجي، كذلك نجدها تأخذ بالنظام الديموقراطي كأسلوب حياة يرقى بالمجتمع، وينهض بأوضاعه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويمكن أفراده من « الحراك الاجتماعي Social Mobility » بين أفراده وجماعاته وطوائفه وطبقاته. وتتمثل الثقافة المتغيرة المتحركة ـ بصفة عامة ـ في ثقافة أهل المدن، وفي الثقافات التقدمية ، بعكس القرى والثقافات البدائية.[١٣]

رابع عشر : الثقافة تكتسب بالتعلم :

« لما كانت الثقافة تاريخية المنشأ..أي أنها تكونت على مدار التاريخ البشري، وقد شارك فيها أفراد الجماعة البشرية ككل ، أو على الأقل في جانب منها معين، فإنها تنتقل فيما بينهم ، وهذا الانتقال يتم عن طريق التعليم والتعلم والتقليد والتلقين، من جماعة لأخرى، أو من أفراد لآخرين ، عبر الزمان والمكان ، الأمر الذي جعل الثقافة وسيلة للاتصال بين الأجيال المختلفة ، وليس بين أفراد الجيل الواحد ولا يتم هذا الاتصال عن طريق الوراثة البيولوجية، وانما يتم عن طريق التنشئة الاجتماعية Socialization ، أو التنشئة الثقافية Enculturation، تلك التي بموجبها تنتقل الثقافة من جيل لآخر .. إن الطفل الإنساني يولد صفحة بيضاء تخط الثقافة بصماتها عليها، تلك البصمات التي تتمثل في أنماط السلوك ، وطرائق العادات، وطبيعة القيم والأخلاقيات من خلال نموهم في المجتمع، وفي إطار تنشئتهم الثقافية والاجتماعية في محضن الأسرة والجماعة والمجتمع والدولة. يقول الرسول ﷺ ما معناه : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

(١٣) المرجع السابق، ص ص ١٥٠-١٥١.